الحلقة (١٢)

وفي هذه الحلقة سنتحدث إن شاء الله عن قول الماتن الطحاوي رحمه الله "**فقدر لهم أقدارا وضرب لهم آجالا**" وما يتعلق بذلك من مسائل.

فقول المؤلف رحمه الله : "**قدر لهم أقدارا**" يقول الله عز وجل {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} ويقول الله تعالى {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} ويقول الله تعالى {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} وقال تعالى {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} و في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء).

قول المؤلف رحمه الله : "**وضرب لهم آجالاً** " يعني أن الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون قال تعالى {إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} ويقول تعالى {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا} وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود أن أم حبيبة رضي الله عنها زوج النبي عليه الصلاة والسلام قالت: " اللَّهُمَّ أمتعني بزوجي رسول الله وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، قال: فقال النبي صلى الله علية وسلم: (قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئا قبل حله ولن يؤخر شيئا عن حله، لو كنت سألت الله أن يُعيذك من عذاب في النار و عذاب في القبر كان خيرا وأفضل)

فالمقتول ميت بأجله، فعلم الله تعالى وقدر وقضى أن هذا يموت بسبب المرض، وهذا بسبب القتل، وهذا بالهدم، وهذا بالحرق وهذا بالغرق، وغيره من الأسباب فالله تعالى خلق الموت والحياة وخلق سبب الموت وسبب الحياة.

عند المعتزلة قاتلهم الله المقتول مقطوع عليه أجله، ولو لم يقتل لعاش إلى أجله، انظروا إلى هذا الضلال فكان له أجلان، وهذا باطل لأنه لا يليق أن ينسب إلى الله تعالى، أنه جعل له أجلا يعلم أنه لا يعيش إليه البتة، فكيف يكون أجله، أو يجعل أجله أحد الأمرين كفعل الجاهل بالعواقب، يعني إن قتل فهذا أجله، وإن سلم من هذا القتل فأجله آخر، فهذا كفعل الجاهل بالعواقب، ووجوب القصاص والضمان على القاتل لارتكاب المنهي عنه ومباشرته السبب المحظور، وعلى هذا يخرّج قوله صلى الله عليه وسلم (صلة الرحم تزيد في العمر) أي سبب طول العمر وقد قدر الله أن هذا يصل رحمه فيعيش بها السبب إلى هذه الغاية، ولولا ذلك السبب لم يصل إلى هذه الغاية، ولكن قدر هذا السبب وقضاه، وكذلك قدر أن هذا يقطع رحمه فيعيش إلى كذا، كما سبق وذكر الشارح الكلام على القتل وعدمه.

فإن قيل هل يلزم من تأثير صلة الرحم في زيادة العمر ونقصانه تأثير الدعاء في ذلك أم لا؟ الجواب أن

ذلك غير لازم لقوله صلى الله عليه وسلم لأم حبيبة رضي الله عنها: (قد سألت الله تعالى آجالا مضروبة) الحديث، فعُلم أن الأعمار مقدرة لم يشرع الدعاء بتغييرها، بخلاف الدعاء بالنجاة من العذاب في الآخرة فإن الدعاء مشروع له نافع فيه، ألا ترى أن الدعاء بتغيير العمر لمّا تضمن النفع الأخروي شرع، كما في الدعاء الذي رواه النسائي من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (اللَّهُمَّ بعلمك الغيب و قدرتك على الخلق أحييني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي) إلى آخر الدعاء، ويؤيد هذا ما رواه الحاكم في صحيحة من حديث رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) نعوذ بالله من الذنوب ومغبتها، وفي الحديث رد على من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعمة، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه (نهى عن النذر وقال إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل)، فاعلم أن الدعاء يكون مشروعا نافعا في بعض الأشياء دون غيرها، ولهذا لا يحب الله المعتدين في الدعاء، وكان الإمام أحمد رحمه الله يكره أن يدعى له بطول العمر ويقول "**هذا أمر قد فرغ منه**".

← **مسألة:** -وهي ليست في المنهج- وهي قول المؤلف: " **لم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم**"، الله سبحانه وتعالى يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، الله سبحانه يعلم ما كان في الماضي، و ما يكون في الحاضر، و وما لم يكن يعني حتى المستحيل الذي لم يكن لو كان كيف يكون، ويقول تعالى تعالى {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} وإن كانوا لا يردون لكنه أخبر أنهم لو ردوا لعادوا لما كانوا عليه، كما قال تعالى {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} وفي ذلك رد على الرافضة و القدرية الذين قالوا إنه لا يعلم الشيء قبل أن يخلقه ويوجده وهي من مسالة القدر.

←**المسألة** -التي معنا في المنهج- هي مشيئة الله : قول المؤلف "**وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان وما لم يشاء لم يكن**".

يقول الله سبحانه {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} ويقول الله تعالى {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ويقول تعالى {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} ويقول الباري {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ} ويقول الباري {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} ويقول تعالى {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام إذ قال لقومه {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} ويقول تعالى {مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} إلى غير ذلك من الأدلة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وكيف يكون في

ملكه ما لا يشاؤه، ومن أضل سبيلا وأكفر ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر، والكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

هاهنا إشكال قد يرد على بعض الناس في بعض الآيات، فالله سبحانه يقول في الآية الأولى {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا} ويقول سبحانه {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ} ويقول الله تعالى {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} فقد ذمهم الله تعالى حيث جعلوا الشرك كائنا منهم بمشيئة الله، وكذلك ذم إبليس حيث أضاف الإغواء إلى الله إذ قال {رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ}.

وأجيب على هذا بأجوبة من أحسن هذه الأجوبة، أن الله أنكر ذلك عليهم لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته، وقالوا لو كره ذلك وسخطه لما شاءه، فجعلوا مشيئته دليل رضاه، فرد الله عليهم، فرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية.

أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به، أو أنه أنكر عليهم معارضة شرعة وأمره الذي أرسل به رسله ونزل به كتبه بقضائه وقدره، فجعلوا المشيئة العامة دافعة للأمر، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد، وإنما ذكروها معارضين بها لأمره، دافعين بها لشرعه، كفعل الزنادقة و الجهال إذا أمروا أو نهوا احتجوا بالقدر، وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقدر، فقال: "وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره" ويشهد لذلك قوله تعالى في الآية {كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} فعلم أن مرادهم التكذيب، فهو من قبل الفعل من أين له أن الله لم يقدره أطلع الغيب؟! فالمنتفي هو مشيئة الله الشرعية لأن الله تعالى نهاهم عن الشرك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرا فلا حجة لهم فيه، لأن الله خلق النار وأهلها من الشياطين و الكفرة، وهو لا يرضى لعبادة الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وكلمة قاطعة.

العلامة ابن القيم رحمة الله يقول: "وهاهنا أمر يجب التنبيه عليه والتنبه له، وبمعرفته تزول إشكالات كثير تعرض لمن يحط به علما، وهو إن الله سبحانه له الخلق والأمر، وأمره سبحانه نوعان: **أمر كوني قدري** / وأمر **ديني شرعي**، فمشيئته سبحانه متعلقة بخلقه وأمره الكوني، وكذلك تتعلق بما يحيط وبما يحبه وبما يكرهه كله داخل تحت مشيئته، كما خلق إبليس وهو يبغضه، وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها، فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله، وأما محبته ورضاه فمتعلقة بالأمر الديني وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله، **فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعا، فهو محبوب للرب واقع بمشيئته، كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني ولم تتعلق به مشيئته، وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني، وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته، فلفظ المشيئة كوني، ولفظ المحبة ديني شرعي، ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة**

كونية فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية فتكون هي المحبة، فإذا عرفت هذا فقوله تعالى {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} وقوله تعالى {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} وقوله {وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره، فإن المحبة غير المشيئة، والأمر غير الخلق". انتهى كلامه رحمه الله.

يقول الشارح : "فإن قيل فما تقولون في احتجاج آدم على موسى عليهم السلام بالقدر؟ إذ قال أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن أخلق بأربعين عاما، وشهد النبي صلى الله عليه وسلم أن آدم حج موسى"، أي غلبه بالحجة، يقول الشارح رحمه الله: "قيل نتلقاه بالقبول والسمع والطاعة"، أي هذا الخبر نتلقاه بالقبول لصحته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نتلقاه بالرد والتكذيب لراويه، كما فعلت القدرية ولا بالتأويلات الباردة، بل الصحيح أن آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب وهو الأكل من الشجرة وعصيان الله سبحانه، وهو أعلم بربه و بذنبه بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتج بالقدر، فإنه باطل، وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبأمه من أن يلوم آدم عليه السلام على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه واجتباه وهداه، وإنما وقع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة، فاحتج آدم عليه السلام بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة، فإن القدر يُحتج به على المصائب لا عند المعايب، وهذا المعنى أحسن ما قيل في الحديث، فما قدّر من المصائب يجب الاستسلام له، فإنه من تمام الرضى بالله ربا، وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب عليه أن يستغفر ويتوب من المعايب و يصبر على المصائب، يقول تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} ويقول تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} أما قول إبليس {رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي} إنما ذم على احتجاجه بالقدر لا على اعترافه بالقدر وإثباته له، ألم تسمع قول نوح عليه السلام {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون} ولقد أحسن القائل: فما شئت كان وإن لم أشأ وما شئت إن لم تشأ لم يكن، وعن وهب بن منبه بن كامل الإمام الإخباري القصصي يقول: نظرت في القدر فتحيرت، ثم نظرت فيه فتحيرت، فوجدت أعلم الناس بالقدر أكفهم عنه، وأجهلهم به أنطقهم فيه.

يقول الماتن الطحاوي رحمة الله : "**يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلا و يضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلا**" وهذا ذكر بداية المحاضرة وفيه رد على المعتزلة قولهم بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله، وهي مسألة الهدى والإضلال التي تكلمنا عنها قبل قليل.

قالت المعتزلة الهدى من الله بيان طريق الصواب، والإضلال تسمية العبد ضالا، أو حكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه، وهذا مبني على أصلهم الفاسد: أن أفعال العباد مخلوقة لهم، أي أن العبد يخلق فعل نفسه، والدليل قوله تعالى {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاء} ولو كان الهدى بيان الطريق لما صح هذا النفي عن نبيه صلى الله عليه وسلم، لأنه

صلى الله عليه وسلم بيّن لمن أحب وأبغض الطريق وقوله تعالى {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} ويقول تعالى {يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء} ولو كان الهدى من الله البيان وهو عام في كل نفس لما صح التقييد بالمشيئة، وكذلك قوله تعالى {وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِين} وكذلك قوله {مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم}

يقول الماتن الطحاوي رحمه الله : "**وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله و عدله**" فإنهم كما قال الله تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِن} فمن هداه إلى الإيمان فبفضله وله الحمد، ومن أضله فبعدله وله الحمد، وسيأتي لهذا المعنى زيادة إيضاح إن شاء الله.

يقول الشارح رحمه الله فإن الشيخ يقصد الطحاوي رحمه الله لم يجمع الكلام في القدر في مكان واحد، بل فرقة فأتيت به على ترتيب الشيخ.